

تاريخ محطة المروءة المائية



فتح المدائن الإسلامية لله ولى

بقلم: الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي

كان ظهور المدن الإسلامية الأولى، البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، نتيجة من نتائج حركة الفتح العربي الإسلامي في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي . وقد تحكمت في اختيار مواقع تلك المدن وتنظيم خططها الضرورات العسكرية، لأنها كانت - أول أمرها - معسكرات بدائية للجيش العربي الفاتح، ثم تطورت في مرحلة لاحقة إلى مدن تملك الصفات الأساسية للحاضرة .

لقد كانت مسألة اختيار مواقع تلك المدن، من حيث توافر المزايا المادية وأسباب الأمان فيها موضع جدل بين المؤرخين والباحثين، بدأه ابن خلدون نقداً صارماً للعرب آنذاك لأنهم لم يراعوا في اختيار تلك المواقع المتطلبات الأساسية للحياة الحضرية، وفي مقدمتها مياه الشرب وانتهى على يد المستشرقين قناعة مفادها أن تلك المدن كانت مدناً عفوية، ولم يكن قيامها مخططاً له ولم تنتهياً لها المستلزمات الضرورية لقيام المدن .

إن هذا البحث هو دراسة تاريخية لظروف اختيار مواقع تلك المدن، وصفاتها الطبيعية والمشكلة الرئيسية التي واجهتها بعض هذه المدن، وأعني مشكلة الموارد المائية، وقد أظهرت الدراسة أن رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين لا يمكن تعميمه على جميع تلك المدن التي أسسها العرب، بل ينطبق على بعضها، يتجلى ذلك واضحاً من خلال الموازنة بين هذه المدن من حيث صفات مواقعها وظروف نشأتها .

وقد كانت البصرة، وهي أول مدينة تؤسس في التاريخ الإسلامي (مطلع القرن الأول الهجري / السابع الميلادي)، من أكثر المدن العربية الإسلامية معاناة من مشكلة الماء، - ومازالت تعاني منها إلى يومنا هذا - ، لذلك خصتها هذه الدراسة بتفصيل أوسع لبيان العلاقة بين مسألة اختيار الموقع وظهور المشكلة، والجهود التي بذلت لمواجهتها خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة .

اعتاد الإغريق على بذل أقصى الجهود لاختيار الموقع المناسب عند التفكير في إنشاء مدينة جديدة، إذ أن ازدهار المدينة كان يتوقف على ملائمة الموقع من الناحية الصحية، ومن حيث توافر المزايا المادية وأسباب الأمان . وكان الفلاسفة الإغريق ومخططو المدن يدرسون كل هذه العوامل بعناية دقيقة^(١) .

ويعد توافر المياه شرطاً أساسياً في اختيار مواقع المدن، إذ عليه تقوم الحياة فيها . ولتوافر الماء مصادر متنوعة أهمها الأنهار الجارية باعتبارها مورداً منتظماً للمياه، وإن شرط سعة الماء الذي يرد في المصادر العربية يعني أمرين . الأول : وفرة الماء في أن يفي بحاجة السكان ويفيض مراعاة للنظرة المستقبلية والتوسع العمراني المتوقع لأية مدينة، والثاني : عذوبته، أي صلاحيته للاستخدام البشري من شرب وأغراض أخرى . فهل كان العرب في صدر الإسلام، وفي المراحل الأولى من نهضتهم الحضارية يخضعون مسألة اختيار مدنها الجديدة لاعتبارات محددة ؟ وهل كان لشرط سعة الماء، حضور واضح في حساباتهم عند اختيارهم لمواقع تلك المدن ؟

ينفي ابن خلدون^(٢) ذلك، ويؤكد أن العرب في بدء تخطيطهم المدن الإسلامية لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء، ولم يراعوا مسألة توافر الماء للاستخدام البشري ولا المراعي ولا المزارع ولا الحطب، فكانت هذه المدن أسرع إلى الخراب، لأنها لم تراعى فيها تلك الأمور الطبيعية، وكان ذلك إشارة إلى

تخطيط كل من البصرة والكوفة لكونهما أول مدينتين تؤسسان في الإسلام خارج جزيرة العرب .

وفي المصادر التي سبقت ابن خلدون روايات فيها إشارات إلى مثل هذا المعنى، فقد ذكر الطبري أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال موجهاً قادة فتح العراق عندما استأذنوه لبناء مستقرات مدنية دائمة لجندهم - الكوفة والبصرة - "العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل"^(٣) وحدد لهم صفات مواقع هذه المدن، والرواية التاريخية تبين أن الخليفة في رسالته الجوابية على رسالة عتبة بن غزوان في البصرة حول حاجته إلى اتخاذ موضع دائم للمقاتلين العرب قال : "ولا تجعل بيني وبينهم - يعني العرب - بحراً"^(٤) أي أنه كان يرغب أن يكون موقع المدينة على أطراف الصحراء .

من جانب آخر، تبنت الدراسات الاستشراقية في الغالب موقفاً سلبياً من المدينة العربية الإسلامية والتمدن الإسلامي بشكل عام، فقد ظهر في القرن الماضي أدب استشراقي وفير عن المدينة الإسلامية^(٥)، وكان المؤرخون من أكثر المساهمين في الدراسات الاستشراقية كما ونوعاً، وبغض النظر عن اتجاهات تلك الدراسات ودوافعها فإنها تمحورت في الأغلب على دراسة الإشكالية الآتية :

هل كانت المدينة الإسلامية مدينة منشأة أم كانت مدينة (عفوية) ؟

وإجمالاً يمكننا القول أن تلك الدراسات قد خرجت بفكرة أساسية استندت إليها النظرية الاستشراقية بشكل عام وهي أن المدينة المنشأة تشكل استثناءً في تاريخ الإسلام، لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها، وهي إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة بل لصالح الأمير، وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقراً للقصر وترتبط بوجود أسرة حاكمة، أي أنها تكون مؤقتة ومفتعلة بالضرورة^(٦) .

وعلى الرغم من أن بحثنا هذا ليس موضوعه التمدن الإسلامي أو تخطيط المدن العربية الإسلامية بشكل عام، بل يتناول جزئية تندرج في إطار توافر المزايا المادية الأساسية في مواقع المدن الإسلامية الأولى وهي مسألة الماء، إلا أننا نرى أهمية الوقوف دون إطالة أمام رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين من موضوع نشأة المدن الإسلامية،

وهل يتطابق هذا الرأي والخلفيات التاريخية لنشأة هذه المدن ؟ وهل يمكن تعميمه على كل المدن الإسلامية لنقر من ثم (بعفوية) هذه المدن ؟

إن المتمعن في الخلفيات التاريخية للعوامل التي ساعدت على استقرار العرب في المدن والحوضر الإسلامية المختلفة واتخاذها مواطن لاستقرارهم سيخرج دون شك بنتيجة مفادها أن هؤلاء العرب كانوا يضعون جملة مستلزمات وشروط في اختيارهم مواضع المدن، وفي التفاضل بين المواضع التي لم يتم اختيارها تبعاً للصفات الصحية والجغرافية والحضارية والاقتصادية لهذه المواقع المختارة، فلم تكن مسألة المدن العربية واختيار مواضعها من المسائل العشوائية والآنية كما اعتقد بعض الباحثين الأجانب^(٧) في حقل التمدن الإسلامي . وإذا كانت المدن الإسلامية الأولى، وتحديداً كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان قد اشتركت في خاصية واحدة وهي أنها كانت في أول أمرها مجرد معسكرات بدائية للجند الفاتحين فإنها تطورت في مرحلة ثانية إلى مدن تملك الصفات الأساسية للحاضرة، كما أن هذه المدن كانت تتباين في خصائصها وتخطيطها وظروف نشأتها، وأن رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين لا ينطبق على جميع المدن التي أسسها العرب بل ينطبق على بعضها، يتجلى ذلك واضحاً من خلال الموازنة بين تلك المدن من حيث ظروف نشأتها واختيار مواقعها ولاسيما الموازنة بين البصرة والكوفة اللتين تقاربتا جغرافياً، واشتركتا عند بدء التأسيس في كثير من السمات العامة .

المدن الإسلامية الأولى وقضية الماء

إذا كان بالإمكان الإشارة إلى عفوية نسبية في أول ظهور البصرة فإن الأمر مختلف فيما يتعلق بالكوفة التي ظهرت نتيجة عمل وقرار مصمم ومرسل من لدن السلطة، إذ كانت الكوفة مركز الجيش الفاتح الذي انتصر في معارك القادسية والمدائن وجلولاء، وحسم موضوع فتح العراق، فكان لابد أن تحظى هذه المنطقة برعاية خاصة من لدن السلطة من حيث اختيار الموقع والتصميم والتخطيط اللاحق، وهذا ما حصل فعلاً، فقد تحدد مكان الكوفة بما يتسق واستراتيجية العرب في بناء المدن في صدر الإسلام، فلم

تتخذ الحيرة ولا المدائن، وهما مدينتان قديمتان مركزاً لاستقرار العرب الفاتحين، بل اختيار موقع آخر للمدينة الجديدة، على مقربة من الفرات، وبذلك أَمِنَ هذا الموقع أهم عنصر من عناصر الحياة في المدينة، وهو الماء، فضلاً عن المزايا الأخرى .

لقد كانت العلاقة وثيقة منذ بدء التأسيس بين الكوفة والماء على الرغم من أن العرب الأوائل غادروا عالم المدائن المائي، وأنشأوا مدينتهم على أطراف الصحراء بناءً على توجيهات الخليفة عمر، إلا أنهم كانوا على مقربة من ضفاف الفرات أو من فروعه، فقد أشار الطبري^(٨) إلى وجود شبكة من القنوات جنوب الكوفة، وهذه القنوات معروفة بنهر الحيرة ونهر السليحين ونهر القادسية ونهر يوسف، كما أن الأخبار الخاصة بمعركة القادسية تحدثت عن قناة اسمها العتيق^(٩) يبدو أنها كانت مهمة، وقد أشار إليها المسعودي واصفاً إياها بأنها مجرى قديم للفرات كان يصب في بحر قديم قام مكان بحيرة النجف^(١٠)، ومن المؤكد أن الحيرة - القريبة من الكوفة - لم تكن قادرة على أن تحافظ على وجودها المزدهر في الماضي كونها واحة من دون الري، وقد تغذت الضفة الغربية للفرات بواسطة القنوات الآخذة من الفرات، ويحتمل أنها أهملت في أواخر العهد الساساني وعادت إلى سالف نشاطها في العصر العربي^(١١) .

وفي زمن ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ - ١٢٩هـ) حفرت أنهار جديدة تزود المدينة بماء الفرات العذب مثل : نهر الجامع ونهر خالد المبارك وباجوه وبارمانة ولوبه، فمثل ذلك شبكة حقيقية من الأنهار الفرعية^(١٢) لذلك كان سكان الكوفة يحصلون على الماء مباشرة دون عناء، ولم يكن هناك تنظيم معقد في عملية توفير الماء بل كان اعتمادهم على السقائين وبعض الآبار في القصر وفي بعض الجبانات^(١٣) . ويشير الطبري^(١٤) إلى وجود دار للسقاية، كانت عبارة عن بناية عمومية للتأمين بالماء، ويبدو أن دور السقاية العامة استمرت إلى عصور متأخرة، فقد أشار ابن جبير^(١٥) إلى وجود سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها أحواض كبار . وقد أسهمت المصادر القديمة في ذكر فضل الفرات على الكوفة والإشادة بعذوبته، وكثيراً ما افتخر أهل الكوفة وفضلوا أنفسهم على أهل البصرة بأن هواءهم أصح وماءهم أعذب من ماء البصرة^(١٦) . أما مدينة الفسطاط التي أسست في مصر سنة ٢١هـ، فقد عدت من الأمصار الإسلامية السبعة، وتجمعها وعدد من الأمصار لاسيما البصرة والكوفة سمات مشتركة أهمها أن تأسيسها كان نتيجة

من نتائج الفتوحات الإسلامية وأن العوامل العسكرية قد لعبت دوراً بارزاً في اختيارها ومن ثم في وضع خططها ووحداتها العمرانية، وأكثر سكانها كان من القبائل العربية كما هو الحال في البصرة والكوفة، وقد شهدت بعد زمن قصير من تأسيسها تطورات عمرانية وسكانية كبيرة، فازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والثقافية .

لقد روعي عند تأسيس هذه المدينة المستلزمات الطبيعية والسياسية لقيام المدن، فالروايات التاريخية عن المرحلة الأولى لتأسيس الفسطاط تشير إلى أن هناك تفهماً في مسألة تخطيطها ولم يكن الأمر عشوائياً، فقد اختير موقعها بجوار نهر النيل الذي يحدها غرباً والجبل شرقاً وتقع المزارع بينها من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى، فضلاً عن وقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف منها على الوجهين البحري والقبلي، ولم يكن العرب أمة بحرية لذا لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر^(١٧) وحتى لا يحول بينها وبين مركز القيادة ماء كما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وإذا انتقلنا إلى مدينة القيروان وبحثنا في العوامل التي ساعدت على تأسيسها واتخاذها مدينة، والأسس العمرانية التي استندت عليها، وجدنا أنها تشابه إلى حد كبير العوامل التي ساعدت على ظهور كل من البصرة والكوفة والفسطاط، فهي من ثمار حركة الفتح العربي في شمال أفريقيا، وعلى الرغم من ندرة المعلومات التاريخية المفصلة عن ظروف مرحلتها التأسيسية، فإن هناك اتفاقاً بين المؤرخين والبلدانيين على أنها تأسست سنة ٦٧٠هـ/٦٧٠م وأن مؤسسها عقبة بن نافع ولم ترد روايات أخرى تخالف ذلك .

اختير موقع القيروان وسط البر بعيداً عن الساحل لضرورات عسكرية وعوامل نفسية توافق ذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية، ولم يكن هناك على ما يبدو أي مصدر دائم لمياه الشرب، سوى ما ذكر عن وجود عين ماء كبيرة وهي البئر المسماة (بئر أم عياض) وأن هذه البئر كانت من أسباب اختيار موقع القيروان^(١٨)، ويبدو أن هذه البئر لم تكن تفي بحاجة السكان، أو أنها نضبت بحيث لم نجد لها أثراً في حياة المدينة اللاحقة، ذلك أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان منذ أيام تأسيسها الأولى تمثلت بالموارد المائية، كما هو الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصيرين، فمياه البصرة

كانت تأتي من الأنهار غير أنها مالحة، أما مدينة القيروان فكانت تزود بالمياه الصالحة للشرب من مصدرين :

الأول : مياه الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل) .

والثاني : مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، وقد كان مالحة^(٢١) . فقد ذكر اليعقوبي أن أهل القيروان كان "شربهم ماء المطر إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المواجل . . . ولهم وادي يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح . . . يستعملونه فيما يحتاجون إليه"^(٢٢) .

وقد اشتهرت القيروان بمواجهها (صهاريج المياه) حتى سميت بمدينة المواجل، وما زال بعضها باقياً إلى اليوم^(٢٣) . وقد ذكر البكري أنه في عهد هشام بن عبد الملك تم بناء خمسة عشر ماجلاً للماء، لكن أعظم تلك المواجل ما بناه أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب وهو مستدير ذو مساحة كبيرة يتصل بها ماجل أصغر، فإذا جرى الماء من الوادي يقع في الماجل الصغير ثم يتحول بعد امتلائه إلى الماجل الكبير^(٢٤) .

وكانت أهم تلك المعالجات لهذه المشكلة المعقدة هي قيام المعز بحفر قناة بين الجبل والمدينة تزود تلك المواجل بالمياه^(٢٥) . ومن الواضح أن عدم توفر مياه الشرب كان من أهم المشاكل التي واجهت نمو مدينة القيروان وتوسعها .

أما أكثر المدن العربية الإسلامية معاناة من مشكلة الموارد المائية، فهي مدينة البصرة، وكانت أول مدينة تؤسس في التاريخ العربي الإسلامي، فما العلاقة بين اختيار الموقع وظهور المشكلة ؟ وما هي المعالجات والحلول التي اقترحت لمواجهة هذه المشكلة خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ؟

ظهور البصرة واختيار موقعها

عرف المسلمون منطقة البصرة^(٢٦) أول مرة سنة ١٢هـ/٦٣٣م حين مر بها خالد بن الوليد بعد فراغه من حروب الردة منتصراً، فقد صدرت إليه أوامر الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو في اليمامة بالتوجه إلى الحيرة ودخول العراق من جهة الأبله^(٢٧) "ولم

تكن يومئذ إلا الخريبة، وكانت منازل خربة وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية^(٣٦)، وقد عزز مرور خالد وقيامه بشن غارات على القوات الفارسية في المنطقة معنويات القبائل العربية المقيمة هناك فزادت من فاعلية هجماتها على الفرس .

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه امتد مشروع الفتح بسرعة باتجاه العراق، فقد سعى عمر إلى توسيع الغارات التي كانت تشنها القبائل العربية بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني على القوات الفارسية وتنظيمها وعقلنتها . وفي سنة ١٣هـ/٦٣٤م بدأت عملية تعبئة القوات التي انطلقت من شبه جزيرة العرب لفتح العراق وتحشيدتها، واتخذت من الأطراف الوسطى منه مركزاً لتجمعاتها قرب الحيرة، في المنطقة المواجهة للمدائن عاصمة الساسانيين ومقر حكمهم، في حين أرسلت قوة ثانوية إلى جنوب العراق قرب الأبله، كان الغرض من إنفاذها آنذاك مشاغلة الفرس ومنعهم من إمداد قواتهم الرئيسية التي تقاتل العرب في جبهة الكوفة^(٣٧) . غير أن هذه القوة الصغيرة سرعان ما اتسعت مهماتها، وزاد عددها ليتسنى لها مراقبة طريق الخليج والطرق البرية الأخرى بين العراق وفارس، فضلاً عن قيامها بشن غارات محدودة على المناطق المقابلة والتخوم القريبة^(٣٨)، وكان على رأس تلك القوة الصحابي عتبة بن غزوان، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة كانت الخطوة الأولى لظهور البصرة التي تحكم في ظهورها عدة دوافع وضرورات عسكرية بحتة، كما تحكمت هذه الضرورات في اختيار الموقع وما تلاه من خطط .

وعلى الرغم من عدم اتفاق الآراء تماماً حول تاريخ إنفاذ عتبة إلى المنطقة وظهور البصرة، فضلاً عن التناقض في علاقات الوقائع وعرض الظروف التي رافقت التأسيس، يمكن القول أنه كان هناك حدثان واضحان يشيران إلى ظهور البصرة، الأول تمثل في الإقامة المؤقتة سنة ١٤هـ (المعسكر البدائي) بعد معركة البويب مباشرة، والثاني هو الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية وهزيمة القوات الساسانية سنة ١٦هـ/٦٣٧م^(٣٩) . وقد أشارت المصادر إلى أن معسكر جيش عتبة كان خلال تجربة الثلاث السنوات من الإقامة المؤقتة ينتقل من مكان لآخر، وبعد محاولات (نزولات) ثلاث باءت جميعها بالفشل، وتعرضت فيها حياة الجند للخطر والمرض لوخامة المنطقة ورداءة ظروفها البيئية، فكر عتبة في اختيار مخيم دائم على تخوم الصحراء^(٤٠) .

أما اختيار الموقع فجميع الدلائل تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في ظهور المدينة في مرحلتها التأسيسية الانتقالية المؤقتة، فالشروط التي شدد عليها الخليفة عمر رضي الله عنه عند إعطاء الإذن لعتبة بالإقامة الدائمة واختيار المكان تؤكد ذلك، فقد اشترط أن يكون الموقع المنتخب على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة لكي تصبح عملية وصول الإمدادات والاتصالات الأخرى مع المركز سهلة وميسورة، وهذا الشرط يطابق الاستراتيجية العسكرية العربية في مسألة الانسحاب إلى الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية وبذلك كانت تعبيرات "على طرف البر، قريب من الريف على طرف الصحراء، لا تجعلوا بني وبينهم بحراً"^(٣١) الخ، هي المعاني التي تضمنت ذلك المدلول العسكري، وقد نجد هذا الأمر بوضوح في اتخاذ كل من البصرة والكوفة والفسطاط حواضر سكنية، ولا يستبعد أيضاً في هذا المجال أن يكون قرار الاستقرار في منطقة تشرف على البادية قد راعى العوامل النفسية للمقاتلين العرب بحيث يكون تكيفهم معها أكثر بدهاء .

لقد اختير موقع البصرة للضرورات والأسباب آنفة الذكر، عند نافذة العراق الجنوبية، فوق عتبة من الأرض اليابسة التي تفصل منطقة البطائح^(٣٢) عن ساحل الخليج العربي، فتهياً لها موقع فريد، هو ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء^(٣٣) وقد بنيت البصرة بعد تخطيطها في أرض مستوية خالية من أي عوارض أو مرتفعات تحد حدودها وتعطل توسعها وامتدادها، وهي أرض منخفضة لا يزيد ارتفاعها عن مستوى سطح البحر أكثر من أربعة أمتار، وتزداد ارتفاعاً كلما توجهنا غرباً، وهي أرض جرداء غير ذات زرع تفتقر إلى أي مصدر للمياه وتبعد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً) عن أقرب موضع مأهول هو الأبله التي تقع على شط العرب، وكان يسمى آنئذ دجلة العوراء^(٣٤) .

ظروف المدينة البيئية ومشكلة الماء

إن موقع البصرة الجغرافي قد هياً لها أن تكون مركزاً مهماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية لنشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام الذي تنامي بسرعة في مطلع القرن الثاني للهجرة بعد أن تخلت المدينة عن وظيفتها العسكرية

تدريجياً في أعقاب فتور حركة الفتوح في أواخر القرن الأول الهجري، كما أن هذا الموقع هياً لها مورداً زراعياً يؤمن حياة السكان الغذائية، الأمر الذي أدى إلى نمو الكثافة السكانية فيها بسرعة كبيرة من حوالي ألف مقاتل عند تمصيرها سنة ١٦هـ/٦٣٧م إلى حوالي ٣٠٠ ألف ساكن سنة ٥٠ للهجرة^(٣٥)، ثم صار عدد السكان فيها نصف مليون نسمة أواخر العصر الأموي^(٣٦)، وفي العصر العباسي أصبح بحدود المليون نسمة^(٣٧).

إلا أن المدينة بسبب موقعها الذي كان لتعليمات الخليفة عمر رضي الله عنه أثر جوهري في اختياره، ذلك الاختيار المخالف لقوانين العمران العامة، والمفسر بمجاورة البادية مع شحة مياه الشرب، واجهت ظروفاً بيئية غاية في الصعوبة، لا تسمح في الأقل للبصرة أن تكون ذلك البلد العظيم الذي عرفناه، فالمناخ قاس والمنطقة جرداء تفتقر إلى أي مصدر للمياه الصالحة للشرب، فضلاً عن سوء أحوال تربتها، ويتجلى ذلك في كلمة الشكوى النسوبة للأحنف بن قيس التي قالها بين يدي الخليفة عمر بن الخطاب نيابة عن وفد أهل البصرة الذي تشكل لهذا الغرض^(٣٨) في السنة الثامنة عشرة للهجرة^(٣٩) خير تصوير لواقع الظروف البيئية في المدينة بعد عام واحد من تمصيرها.

قال الأحنف زعيم تميم شارحاً قضية أهل البصرة "يا أمير المؤمنين، إنك لكما ذكرنا، وقد يعزب ما قد يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بأذانهم، وإننا لم نزل ننزل منزلاً بعد منزل حين أرزنا إلى البر، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب، فتأتيتهم ثمارهم ولم تخضد وإننا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة، زعقة نشاشة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة، دارنا فعمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير، وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا، فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها"^(٤٠).

وربما كانت هذه الخطبة موضوعة، فقد وردت في عدة مصادر بصياغات مختلفة^(٤١) لكنها تتجاوب مع الحقيقة وترسم صورة الواقع البيئي للمدينة والصعوبات الكبيرة التي واجهها سكان البصرة جراء تلك الظروف.

لقد كانت مسألة توفير مياه الشرب من أصعب المشاكل في البصرة منذ تأسيسها، فأمواء المدينة مجة مألحة وهي إن صلحت لسقى المزروعات فإنها غير صالحة للاستهلاك البشري^(٤٢) وقد ضج من فسادها الجميع منذ الأيام الأولى من تأسيسها . وكان من المفروض أن البدو من أكثر الناس قدرة على تحمل عنت الماء، إلا أن موضوع تزويد المدينة بالماء العذب خلق مشكلة نجد صداها في معظم المؤلفات التي يرد فيها ذكر البصرة، فهذا أبو اسحق الصائبي يتلهف إلى السكنى في بغداد ويصف ماء البصرة فيقول^(٤٣) :

لهف نفسي على المقام ببغدا د وشربي من كوز ماء بثلج
نحن في البصرة الجميلة نُسقى شر سقيا من مائها الأترجي

وقد ظلت مشكلة الماء وملوحته من أبرز صفات البصرة حتى زمن متأخر على الرغم من كثرة الأنهار والقنوات التي شقت إليها من شط العرب في وقت مبكر وعلى الرغم من تعدد المحاولات والمشاريع فالاصطخري في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يقارن بين الكوفة والبصرة قائلاً : إن الكوفة قريبة من البصرة في المساحة، لكن هواؤها أصح، وماؤها أعذب من البصرة^(٤٤) . ويذكر المقدسي أن مياه البصرة ضيقة لأنها تحمل في السفن من الأبله^(٤٥)، أما المياه المجاورة للمدينة فكانت غير طيبة ومألحة لأن "ثلثه ماء البحر وثلثه ماء الجزر وثلثه ماء الحجر"^(٤٦) . كما أشار ابن بطوطة^(٤٧) في رحلته في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلى هذه المشكلة التي كان يعاني منها أهل البصرة .

وفي الوقت الذي تضاربت فيه آراء الباحثين من عرب ومستشرقين حول التفاسير التي قدمها الباحثون اللغويون والمؤرخون العرب لمعنى كلمة (البصرة) كان منهم من وجد في مشكلة مياه الشرب سبباً لتلك التسمية (البصرة) تشبيهاً لها بمياه (البصرة) الغليظة التي عرفها العرب في نجد، فقد ذكر ياقوت الحموي أن (البصرة) "من مياه بني عقيل في نجد بالأعراف، أعراف غمرة، فإذا شرب الإنسان من مائها شيئاً لم يرو حتى يرسل ذنبه - كذا - وليست ملحّة جداً ولكنها غليظة"^(٤٨)، ولعل العرب سموها هذه الحاضرة باسم تلك المياه لشبه مائها بماء تلك، ثم كان ما كان من السين والصاد من الإبدال الصوتي^(٤٩) .

من جانب آخر كان هناك مشكل بيئي ثان عانت منه المدينة معاناة شديدة، وزاد مشكلة عدم توفر المياه العذبة صعوبة أخرى وهو المناخ الذي لم يكن طيباً وعرف برداءته، فقد عرفت البصرة بتغير المناخ فيها في اليوم الواحد، ذكر ياقوت في معجم البلدان ما نصه "قال الجاحظ : من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لأنهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات"^(٥٠).

وإذا كان هذا هو طقس البصرة في اليوم الواحد، فهو شديد التفاوت أيضاً بين الصيف والشتاء، فشتاؤها بارد "ربما جمد الماء في البصرة"^(٥١) وصيفها شديد الحر، يطيب قليلاً، وإذا هبت (الجنوب) حصلت الوخامة واشتدت أزمة الحر وكثرت الرطوبة المملة وتضايقت الأنفاس فحصل في الأعضاء رخاوة وكسل^(٥٢) وقد وصف ابن لنكنك هذه الحال بقوله^(٥٣) :

نحن في البصرة في لو ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب فكأننا في خريف

ويبدو أن رداءة هواء المدينة مرده إلى كثرة المستنقعات الحاصلة من انحدار مياه الفيضان، وربما ركد الماء في بعض الأراضي المحيطة بها عدة أشهر حتى ينتن ويتعفن الهواء^(٥٤) فضلاً عن كثرة التبخر من تلك المياه المنتشرة على مساحة واسعة من أرض المدينة ومحيطها بسبب الحرارة الشديدة صيفاً، واستواء أرض البصرة التي جعلت مياه الأنهار تجري ببطء شديد، كل ذلك أدى إلى أن تكون السباح التي تكاد تغطي معظم أرض البصرة وأصبحت سمة من سمات أرضها - إلى يومنا هذا - على الرغم من كل محاولات الاستصلاح التي جرت بعد الفتح العربي الإسلامي والتي استخدم فيها العبيد بأعداد كبيرة جداً لكسح هذا السباح، وظلوا يعملون فيها حتى أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما قاموا بحركتهم المعروفة^(٥٥). يلاحظ أنه لم يذكر في تاريخ الدولة العربية الإسلامية استخدام للعبيد بهذا العدد الواسع إلا في منطقة البصرة.

وفي الوقت الذي امتدحت فيه البصرة لخصائص طيبة فيها، فقد قيل فيها الكثير من الذم بسبب رداءة مائها وهوائها، قال فيها أبو العيناء محمد بن القاسم بن قلاذ

الهاشمي^(٥٦) لما سئل عن البصرة "ماؤها أجاج، وحرها عذب"^(٥٧) وقد انعكست تلك الطبيعة القاسية على أبدان البصريين وألوانهم وكسفت وجوههم حتى أن شاعراً من أهل الكوفة عاب على أهل البصرة نحافتهم وضعف أبدانهم فكأنهم العشاق المعاميد، فقال^(٥٨) :

لله أترج غدا بيننا معبراً عن حال ذي عبرة
لما كسى ثياب الضنى أهل الهوى وساكني البصرة

الجهود والمحاولات لمواجهة المشكلة

أشرنا إلى أن المنطقة التي أنشئت فيها البصرة كانت خالية من الأنهار الفرعية التي توصل المياه العذبة، فكان أهل البصرة في أوائل أيام تأسيسها يعتمدون على مياه البطيحة التي كانت أعذب من دجلة^(٥٩) - شط العرب - وكان ماء البطيحة يصل إلى أطراف البصرة، ولكن من الصعب تحديد مواقع له عدم ثباتها، إذ يعتمد ذلك على كمية المياه فيها، فهو يزداد ويتسع في مواسم الفيضان (الربيع) وينحسر في موسم الصيف، كما يرتبط أيضاً بمدى صلاح المشاريع الإروائية وفعاليتها في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق، فيزيد ماء البطيحة وتدخلها كميات هائلة من المياه في الأزمنة التي تتعرض فيها تلك المشاريع إلى التخريب والإهمال^(٦٠)، لذا فإن هذا المصدر لم يكن يؤمن حاجة السكان من الماء العذب بانتظام، فضلاً عن صعوبة الحصول عليه ونقله . وذكر البلاذري أن الأحنف بن قيس حين شكا للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلقاه أهل البصرة من معاناة بسبب الماء قال : " . . يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين"^(٦١)

إن الإجراء الفوري الذي اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب لمعالجة هذه المشكلة بعد شكوى أهل البصرة أنه أمر أبا موسى الأشعري والي البصرة آنئذ أن (يحفر لهم نهراً) فحفر نهر الأبله، وقصة حفر هذا النهر أوردها البلاذري^(٦٢) وخلاصتها أنه كان لدجلة العوراء وهي دجلة البصرة خور^(٦٣) طوله قدر فرسخ يجري فيه ماء الأمطار ويتراجع ماؤه

عند المد، وينضب عند الجزر، وكان لحده مما يلي البصرة فورة واسعة تسمى في الجاهلية (الأجانة) وسمته العرب في الإسلام بـ (الجزارة)^(٦٤) وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب تقرر أن يحفر لأهل البصرة نهر، فابتدأ الحفر في الأجانة لمسافة ثلاثة فراسخ حتى وصل البصرة فصار طول نهر الأبله أربعة فراسخ، ويبدو أن الحفر لم يكن منظماً أو عميقاً أو لم يجر الاعتناء بكريه ربما بسبب الرغبة في إيصال الماء إلى المدينة الجديدة بأسرع وقت لتلافي مشكلة شحة المياه فيها، لذلك انظم بعد مدة قصيرة، فأعيد حفره وتعميقه في زمن الخليفة عثمان بن عفان، ولكن بمجرى جديد قريب من الحفر القديم، وهو المجرى اذي استقر عليه بعدئذ ويسمى اليوم نهر العشار وتقع عليه مدينة البصرة الحديثة^(٦٥).

يبدو أن المشروع الإنشائي الأول لم يحل المشكلة، يفسر ذلك كثرة المشاريع التي نفذتها الدولة فيما بعد مع تكرار شكوى أهل المدينة من استمرار هذه المشكلة الحياتية، لذلك اتجه الخلفاء والولاة نحو حفر المزيد من الأنهار، ومن أشهر تلك الأنهار نهر المعقل.

ويعد نهر المعقل من أهم المشاريع التي نفذت في المدينة بعد نهر الأبله فكان يوازيه في الأهمية، وقد ارتبط اسم النهر باسم الصحابي المعروف معقل بن يسار الذي أشرف على حفره بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب^(٦٦)، وقيل أنه حفر في زمن ولاية زياد بن أبيه (٤٥-٥٣ هـ / ٦٦٥-٦٧٣ م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد أشرف على حفره معقل بن يسار فسمي باسمه على الرغم من أنه حفر بأمر من زياد^(٦٧)، والمرجح أن زياداً قام بتوسيعه وتنظيمه ضمن ما قام به من أعمال مهمة في مجال تنظيم المدينة فكان هذا الاختلاف بين الروايتين، فزياد هو الذي قام بمده إلى جهة الجنوب وسمى ذلك نهر العطف بنهر دبيس^(٦٨). يتفرع نهر المعقل من دجلة - شط العرب - من جهة الشمال الشرقي لمدينة البصرة^(٦٩) ويتجه مستقيماً نحو الغرب ثم ينعطف نحو الجنوب على شكل قوس وينتهي بمدينة البصرة شمال الجانب الغربي منها حيث يلتقي بنهر الأبله^(٧٠) ويكونان قناة واحدة تسير مسافة ستة كيلومترات لتصب في المزل المعروف الآن بخور عبد الله، وهو منصرف جميع قنوات وأنهار البصرة الآخذة من شط العرب^(٧١). وتأتي أهمية هذا النهر في النقل التجاري أيضاً لعمقه وغزارة مائه على الرغم من كثرة الأنهار

الآخذة منه^(٧٢) . ونهر معقل هو الآن من الأنهار المندثرة^(٧٣) والمرجح أن فوهته كانت عند محلة المعقل الحالية شمال مدينة البصرة الحديثة^(٧٤) .

وخلال ولاية عبد الله بن عامر الأولى على البصرة (٢٥ - ٣٦هـ/٦٤٥ - ٦٥٦م) حفرت أنهار جديدة أخرى هي : نهر الأساورة الذي تم حفره سنة ٣١هـ^(٧٥) وقد سمي نهر الأساورة باسم القوة العسكرية التي قاتلت العرب في الأحواز ثم انضمت إلى العرب لقاء منحهم امتيازات العرب نفسها في العطاء^(٧٦) وهذا النهر يبدأ من دار فيل (مولى زياد)^(٧٧) ويجري في الجهات الجنوبية الغربية من البصرة حيث كانت خطط تميم^(٧٨) ، ولم تذكر المصادر مصدر ماء هذا النهر، إلا أن موقعه الجغرافي يشير إلى أنه كان يأخذ ماءه من نهر الأبله .

النهر الثاني الذي حفر في ولاية عبد الله بن عامر هو نهر أم عبد الله وكان هذا النهر يمر وسط بيوت البصرة وسوقها^(٧٩) وكان عليه نخل أمر بعقره عبيد الله بن زياد عندما وصله خبر موت يزيد^(٨٠) ، ولم تذكر المصادر مصدر ماء هذا النهر . ويذكر الطبري نهراً ثالثاً ينسب إلى عبد الله بن عامر اسمه نهر عبد الله كان موقعه جنوب البصرة^(٨١) ويأخذ ماءه من شط العرب .

وفي العصر الأموي استمرت جهود الخلفاء والولاة في تنفيذ مشاريع الري لمدينة البصرة فقام زياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣هـ/٦٦٥ - ٦٧٣م) بحفر نهر أم حبيب ونهر البنات ونهر أبي موسى^(٨٢) . وكذلك اهتم الحجاج بن يوسف (٧٥ - ٩٥هـ) بأمور الري فأمر بحفر عدة أنهار منها نهر الصين ونهر النيل ونهر الزابي^(٨٣) وحفر عدي بن أرطاة الفزاري عامل عمر بن عبد العزيز على البصرة نهر عدي وقد ساهم حفر هذا النهر بتوفير الماء العذب لأهل البصرة^(٨٤) .

وقيل أنه لما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملاً على العراق سنة ٢٦هـ/٧٤م من قبل يزيد بن عبد الملك أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم فكتب بذلك إلى يزيد فكتب هذا إليه : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق أفنقه عليه ، فحفر النهر الذي يعرف بنهر عمر^(٨٥) ولم ينتفع الناس من هذا النهر كما كان متوقفاً " إذ كان الماء الذي يأتيه نزراً وكان معظم ماء البطيحة يذهب في نهر الدير^(٨٦) فظل البصريون يستعذبون من الأبله حتى قدم سليمان بن علي^(٨٧) البصرة واتخذ المغيرة^(٨٨) وعمل

مسناتها على البطيحة فحجز الماء عن نهر الدير وصرفه إلى نهر ابن عمر وأنفق على المغيثة ألف، ألف درهم^(٨٩).

استمر الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي في حفر المزيد من الأنهار لتوفير المياه الصالحة للشرب لسكان المدينة، وكان من النتائج العرضية لهذه السياسة أن كثرت الأنهار واستصلحت الكثير من الأراضي حتى صارت البصرة الممول الغذائي الرئيسي لمناطق واسعة مجاورة لها خاصة شمال شبه الجزيرة العربية والخليج العربي . لقد أتخمت المدينة ماءً بعد أن كانت تشكو من شحته، واشتهرت بين مدن العالم الإسلامي آنذاك بكثرة أنهارها التي كانت شبكة معقدة من الأنهار الكبيرة والصغيرة تتخلل أراضيها الزراعية والعمرانية، وقد أحصيت تلك الأنهار مطلع القرن الثاني للهجرة في أثناء ولاية بلال بن أبي بردة على البصرة (١٠٩ - ١١٨هـ/ ٧٢٧ - ٧٣٦م) فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق^(٩٠)، وقد رفض الاصطخري (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) قبول ذلك حين سمعه إلا أنه لم يلبث أن تراجع حين رأى المنطقة بنفسه قال : "... حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار^(٩١) صغاراً تجري في كلها زواريق صغار، ولكل نهر اسم ينسب إلى اسم صاحبه الذي احتفزه أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي فجوزت أن يكون ذلك في طول المسافة وعرضها^(٩٢) .

إن هذه الرواية ربما تثير استغراب القارئ اليوم أيضاً لما يعتقده فيها من مبالغة تندرج في سياق المبالغات التي ألفناها في مصادرنا القديمة، غير أنها - في الحقيقة - تطابق الواقع إلى حد كبير، وقد حاولنا التحقق ميدانياً من هذه الفرضية على أرض البصرة مستندين إلى رواية سهراب^(٩٣) الدقيقة إلى حد مقبول عن أنهار البصرة الكبيرة، فهذه الأنهار العشرة العظام^(٩٤) التي ذكرها على الجانب الغربي من دجلة - شط العرب - مازالت تحتفظ بأسمائها حتى اليوم، كما تحتفظ بالمواقع نفسها والأبعاد التي بينها عدا اختلافات بسيطة^(٩٥)، وجميع هذه الأنهار تأخذ ماءها من شط العرب ويجري فيها من غير تدخل الإنسان، وذلك من خلال عمليتي المد والجزر التي تحدث مرتين في اليوم وتسقي خلالها المزارع وغابات النخيل من خلال شبكة معقدة من القنوات والترع المتفرعة من هذه الأنهار، فضلاً عن القنوات والترع المتفرعة من شط العرب يفصل بين الواحدة

والأخرى مسافة ميل واحد وتتفرع منها أيضاً أفرع كثيرة أخرى تزيد أحياناً على العشرة أفرع في الميل المربع الواحد، فإذا كانت أرض البصرة بمغارسها وضواحيها وعمرانها "من عبادس إلى عبدان نيف وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا بحيث نهر ونخيل"^(٩٦) فإن الرقم الذي ذكره الاصطخري يكون قريباً جداً من الواقع .

لم تكن عمليات حفر الأنهر هي الوسيلة الوحيدة التي لجأت إليها الدولة لمعالجة مشكلة المياه في البصرة، إذ لجأ بعض الولاة إلى أساليب أخرى منها : حفر الصهاريج الخاصة بهم تخزين فيها مياه الأمطار التي كانت تستخدم لأغراض الشرب، فقد كان لعبد الله بن عامر (٤١ - ٤٥هـ) وزياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣هـ) صهاريج يبيعونها للناس كما كان للحجاج بن يوسف والي العراق (٧٥ - ٩٥هـ) في عهد عبد الملك صهريج في البصرة يجتمع فيه ماء المطر^(٩٧)، ويبدو أن عدد هذه الصهاريج كان قليلاً ولم تكن في متناول جميع السكان .

ولعل أهم المحاولات والجهود التي بذلت في العصر العباسي لتوفير المياه العذبة لأهالي المدينة هي الأحواض التي اتخذها محمد بن سليمان بن علي والي البصرة (١٦٠ - ١٦٦هـ) الذي كان له في البصرة ضيعة "تنفق غلتها على دواليبها وإبلها ومصلحتها"^(٩٨) وكانت المياه المختزنة في حوض المريد موزعة في أنابيب من الرصاص إلى مسافة فرسخ، ثم يرفع مستوى هذه المياه بواسطة دواليب كبيرة، واستمرت هذه الأحواض حتى دمرت سنة ٤٨٣هـ^(٩٩) وربما حمل الماء في بعض الأحيان بواسطة السفن من الأبله إلى أهالي البصرة، لذلك يصف المقدسي^(١٠٠) مياه البصرة بأنها ضيقة لأنها تحمل في السفن .

لقد ظلت مسألة توفر المياه العذبة مصدر قلق دائم لسكان البصرة على مر العصور، فقد ذكر أن الخليفة العباسي الثاني أبا جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٦م) حين أراد أن يستخرج له ضيعة من البطيحة (أي تجفيف جزء من مياهها) كره أهل البصرة ذلك وقدم إليه وفد منهم ومعهم خارطة توضح صورة البطيحة، فأخبروه أنهم يتخوفون أن يملح ماؤهم بسبب هذا الإجراء فقال : "ما أراه كما ظننتم" وأمر بالتوقف عن العمل بهذا المشروع^(١٠١) .

إن المصاعب التي لقيها البصريون للحصول على الماء العذب والجهود التي بذلوها ومواقف الصبر التي أبدوها لكي يوفروا لأنفسهم عنصراً أساسياً من عناصر الحياة الحضرية كانت كبيرة، ولكنها لم تقف أمام عجلة تطور وازدهار البصرة التي شقت طريقها بنفسها واحتلت تلك المكانة المهمة في العصر الوسيط في ميادين الفكر والسياسة والدين والاقتصاد، إنه أمر ملفت للنظر حقاً، يعلق شارل بيل^(١٠٢) على هذا الموضوع قائلاً : "إن فقدان ماء الشرب لدى البدوي الذي يعيش في الصحراء ليس فيه مدعاة للعجب، أما القول بأن الأجيال المقبلة وغير العربية قد استطاعت أن تألف هذه الحالة المزعجة فهذا يفترض وجود مشكلة شائكة ويطرح سؤالاً كبيراً يبحث عن جواب".

الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي

كلية الآداب والعلوم / بني وليد - ليبيا

هوامش البحث

- ١ - جلانفيل داوني، أنطاكيا القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٦.
- ٢ - المقدمة : طبعة دار الشعب، القاهرة، د. ت، ص ٣١٤.
- ٣ - تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٦م، ج ٤ ص ٤١.
- ٤ - البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٣٣٦.
- ٥ - يتضح ذلك من خلال إلقاء نظرة سريعة على قائمة أسماء من كتب عن المدن العربية والتمدن العربي خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين وما أعقبها، ومن بين هؤلاء المستشرقين الذين عنوا بالدراسات التاريخية والمدنية : لامانس، بلاشير، سوفاجيه، بروفنسال، لويس ماسينيون، دوزي، فلاجيل، الأخوان جورج ووليم مارسيه، نولدكه، كرونيباوم، ترتون، فيرث. برونشفيك، بلانهول، كلود كاهن، شارل بيلا، بوتي، هنري بيرنيه، وعشرات غيرهم.
- ٦ - أنظر الدراسة القيمة عن (الاستشراق والمدينة الإسلامية) للدكتور هشام جعيط في كتابه : الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٣، ص ١٤٣ وما بعدها.
- ٧ - في مقدمتهم سوفاجيه، هنري بيرنيه، أكسفير بلانهول وغيرهم.
- ٨ - تاريخ، ج ٦ ص ٩٩.
- ٩ - المصدر نفسه، ج ٣ ص ٥٥٦.
- ١٠ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢، ج ١ ص ٩٠.
- ١١ - هشام جعيط، مرجع سابق، ص ٢٥٢.
- ١٢ - البلاذري، فتوح، ص ٢٨٩.
- ١٣ - المصدر نفسه، ص ٢٨٣.
- ١٤ - المصدر السابق ج ٦، ص ١٠٦.
- ١٥ - الرحلة، بيروت ١٩٦٤، ص ١٨٩.

- ١٦ - أنظر المسعودي، مروج الذهب ج٣، ص٣٣١؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٦٠، ص٤٢٥ .
- ١٧ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ط ١٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١، ص٤٢٥ .
- ١٨ - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢، ص٢٩١ .
- ١٩ - عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، جامعة البصرة ١٩٨٦، ص٢١٧؛ الحبيب الجناحاني، القيروان عبر عصور الحضارة الإسلامية في المغرب، ١٩٨٦، ص٥٩ .
- ٢٠ - البلدان، ليدن ١٨٩١، ص٣٤٨؛ أنظر أيضاً ابن رسته، الأعلام النفيسة، ليدن ١٨٩١، ص٨٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص٢١٦-٢١٧ .
- ٢١ - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص٢٩٢ .
- ٢٢ - البكري، أبو عبيده بن عبد العزيز الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، باريس ١٩١١، ص٢٦ .
- ٢٣ - عبد الجبار ناجي، مرجع سابق، ص٢١٨ .
- ٢٤ - وكانت تسمى يومئذ (أرض الهند) الطبري، ج٤، ص٣٤٧؛ ابن الفقيه، ص١٨٨ .
- ٢٥ - الطبري، ج٣، ص٣٤٣؛ البلاذري، فتوح، ص٣٣٨؛ قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد ١٩٨١، ص٣٤٥ .
- ٢٦ - الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠، ص١٢٣؛ الطبري ج٣، ص٣٤٣ .
- ٢٧ - الطبري ج٣، ص٥٤٠؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٦٥، ص٣٥٨ .
- ٢٨ - شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم كيلاني، دمشق ١٩٨٥، ص٣١؛ صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٨٦، ص٤١ .
- ٢٩ - أنظر ابن الفقيه، ص١٨٧؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص١١٦-١١٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٦؛ الطبري ج٣، ص٥٩١-٥٩٤ .
- ٣٠ - الطبري ج٤، ص٤٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٦٥، ج٣، ص٤١١ .
- ٣١ - البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٤؛ الطبري ج٤، ص٤١-٤٢ .

- ٣٢ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥ ج١، ص ٤٥١ .
- ٣٣ - ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت د.ت، ص ٢١٢ ؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤، ص ٢٥ .
- ٣٤ - ابن الفقيه، ص ١٩٠ ؛ صالح العلي، خطط البصرة، مجلة سومر ١٩٥٢، ص ٧٢ .
- ٣٥ - صالح العلي، خطط البصرة، بمجلة سومر ص ٢٨ .
- ٣٦ - صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص ٤٨ .
- ٣٧ - عبد الرزاق الحسني، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١، ص ١٧٥ .
- ٣٨ - الطبري، ج ٤، ص ٧٥ .
- ٣٩ - المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، النقود الإسلامية، القسطنطينية ١٢٩٨، ص ٤ .
- ٤٠ - الطبري ج ٤، ص ٧٥ ؛ المقرئ، المصدر السابق ص ٥ .
- ٤١ - أنظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٥٦ ؛ ابن الفقيه، ص ١٨٩ .
- ٤٢ - القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٩٠ .
- ٤٣ - الثعالبي، يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٥٦، ج ٢، ص ٢٦٩ .
- ٤٤ - المسالك والممالك، ص ٨٢ .
- ٤٥ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١١٨، ص ١٢٩ .
- ٤٦ - وفي هذا إشارة إلى واحدة من محاولات العرب توفير مياه عذبة لسكان المدينة عن طريق نقل الماء في السفن من شط العرب عبر نهر الأبله .
- ٤٧ - الرحلة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤، ص ١٨٨ .
- ٤٨ - معجم البلدان ج ١، ص ٦٢٢ .
- ٤٩ - إبراهيم السامرائي، أشتات بصرية، بحث ملحق بالترجمة العربية بمؤلف ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١، ص ٧١ .
- ٥٠ - ج ١، ص ٤٣٧ .
- ٥١ - المقدسي، ص ١٢٥ .
- ٥٢ - النبهاني، الشيخ محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ٢، القاهرة ١٣٤٢، ص ١٢ .

- ٥٣ - الثعالبي، يتيمة الدهر ج٢ ص ١٢٥ ؛ ياقوت ج ١، ص ٤٣٦ .
- ٥٤ - التحفة النبهانية، ص ٩ - ١٠ .
- ٥٥ - وهي الحركة المعروفة بـ (حركة الزنج) . أنظر الطبري ج ٩، ص ٢٦٣ وما بعدها .
- ٥٦ - أنظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٦، ج ٢، ص ١٢ .
- ٥٧ - عبد الحسين مبارك وآخر، من مشاهير أعلام البصرة، البصرة ١٩٨٣، ص ١٨١ .
- ٥٨ - ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٨٨ .
- ٥٩ - البلاذري، فتوح، ص ٣٦٩ .
- ٦٠ - المصدر نفسه ص ٢٩٢ ؛ ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ٩٥ .
- ٦١ - البلاذري، ص ٣٥٦ .
- ٦٢ - المصدر السابق والصفحة ؛ وانظر أيضاً ابن الفقيه، ص ١٨٩-١٩٠ .
- ٦٣ - الخور طريق ماء لم يحفره أحد، يجري فيه ماء الأمطار، البلاذري ص ٣٥٦ .
- ٦٤ - ولعلها تقع في منطقة (الكرارة) حالياً في البصرة الحديثة والقريبة من نهر الأبله (العشان) حالياً .
- ٦٥ - طارق الكاتب، شط العرب وشط البصرة ١٩٧١، ص ٩٤-١٠٣ .
- ٦٦ - المقرئزي، النقود الإسلامية، مصدر سابق، ص ٤ .
- ٦٧ - البلاذري، فتوح، ص ٣٥٧ .
- ٦٨ - المصدر نفسه والصفحة ؛ صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها ص ١٥٠ .
- ٦٩ - سهراب، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، فينا ١٩٢٩، ص ١٣٦ .
- ٧٠ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١١٧ .
- ٧١ - ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١، ص ١٢ .
- ٧٢ - أنظر : صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص ١٥٠-١٥٨ .
- ٧٣ - ماسينيون، مرجع سابق ص ١٢ .
- ٧٤ - طارق الكاتب، مرجع سابق ص ٣٥ .

- ٧٥ - البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٥٧-٣٧٢ .
- ٧٦ - أسكنت هذه القوة في البصرة وحالفت بني تميم، وكانت منهم أم عبيد الله بن زياد والي البصرة، أنظر : صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، بيروت ١٩٦٩، ص ٨٣-٨٤ .
- ٧٧ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٥٧ .
- ٧٨ - صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص ٨٩ .
- ٧٩ - خليفة بن خياط، التاريخ، تحقيق أكرم العمري، بغداد ١٩٦٧، ص ١٤٣ .
- ٨٠ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧١ .
- ٨١ - الطبري، ج ٩، ص ٤٧٣ .
- ٨٢ - ابن الفقيه، ص ١٩٦ .
- ٨٣ - البلاذري، ص ٣٨٣ .
- ٨٤ - نفسه ص ٣٦٨-٣٦٩ .
- ٨٥ - نفسه ص ٣٧٠ ؛ ابن رسته، ص ٩٤ .
- ٨٦ - يقع شمال البصرة بحدود ٥٠ كم ويأخذ ماء من شط العرب .
- ٨٧ - ثالث ولاية بني العباس على البصرة ١٣٣ - ١٣٩ هـ وفي عهده ألحق السواد وكور دجلة والبحرين وعمان بالبصرة .
- ٨٨ - المغيرة : أرض أصابها المطر فهي مغيرة .
- ٨٩ - البلاذري، ص ٣٧١ .
- ٩٠ - الاصطخري، المسالك والممالك، ليدن ١٩٢٧، ص ٨٠ .
- ٩١ - المقصود بكلمة أنهار في هذا النص جميع القنوات المائية والترع، إذ كان العرب قديماً يطلقون على أي مجرى مائي اسم نهر .
- ٩٢ - المسالك والممالك، ص ٨٠ ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨، ص ٢٣٥ .
- ٩٣ - سهراب، عجائب الأقاليم السبعة، ص ١٣٥-١٣٦ .
- ٩٤ - أسماؤها من الشمال إلى الجنوب : أبو الأسد، المرأة، الدير، بئق شيرين، معقل، الأبله، اليهودي، أبو الخصيب، الأمير، القندل، أنظر عبد الحكيم الكعبي، دور البصرة التجاري من

القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة تونس الأولى ١٩٩٧، ص ١٧٤ .

٩٥ - أنظر : طارق الكاتب، مرجع سابق، ص ١٠٦ ؛ صالح العلي، خطط البصرة، ص ١٤٧ .

٩٦ - الفرسخ = ثلاثة أميال .

٩٧ - الاصطخري، المسالك، ص ٨٠ .

٩٨ - البلاذري، فتوح ص ٣٧١ .

٩٩ - نفس المصدر والصفحة .

١٠٠ - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد ١٣٥٧هـ، ج ٩، ص ٥٣ .

١٠١ - أحسن التقاسيم، ص ١١٨-١٢٩ .

١٠٢ - البلاذري، فتوح، ص ٣٧١ .

المصادر

- ١ - ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني (ت ٦٣٩هـ) الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٧٥ م .
- ٢ - ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد اللواتي (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت ١٩٦٤ م .
- ٣ - ابن جبير، محمد بن أحمد الكنانى الأندلسي (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٨٤ م .
- ٤ - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن ١٣٥٧هـ .
- ٥ - ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٨٠هـ)، صورة الأرض، مكتبة الحياة بيروت، دت .
- ٦ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، المقدمة، دار الشعب، القاهرة، دت .
- ٧ - ابن خياط، أبو عمر بن خياط (ت ٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، بغداد ١٩٦٧ م .
- ٨ - ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ)، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١ م .
- ٩ - ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين المرواني (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٠ - ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ)، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧ م .
- ١١ - الاصلطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ)، مسالك الممالك، ليدن، بريل ١٩٢٧ م .
- ١٢ - البكري، أبو عبيدة بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، باريس ١٩١١ م .
- ١٣ - البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١٤ - الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٥٦ م .

- ١٥ - الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٦ - سهراب (وضعه ما بين سنة ٢٨٩ - ٣٣٤هـ)، عجائب الأقاليم السبعة، فينا ١٩٢٩ م .
- ١٧ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٦ م .
- ١٨ - قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٢٠هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد ١٩٨١ م .
- ١٩ - القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠ م .
- ٢٠ - السعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢ م .
- التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥ م .
- ٢١ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله البشاري، (ت ٣٨٧هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦ م .
- ٢٢ - المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ) كتاب النقود، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ .
- ٢٣ - ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت د-ت .
- ٢٤ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١ م .

المراجع

- ١ - جلانفيل داووني، أنطاكيا القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧ م.
- ٢ - الحبيب الجنحاني، القيروان عبر عصور الحضارة الإسلامية في المغرب، ١٩٦٨ م.
- ٣ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط ١٣ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١ م.
- ٤ - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢ م.
- ٥ - شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥ م.
- ٦ - صالح أحمد العلي،
- خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٨٦.
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ط ٢، بيروت ١٩٦٩ م.
- ٧ - طارق الكاتب، شط العرب وشط البصرة، البصرة ١٩٧١ م.
- ٨ - عبد الرزاق الحسيني، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١ م.
- ٩ - عبد الحكيم الكعبي، دور البصرة التجاري من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، تونس ١٩٩٧ م.
- ١٠ - عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، البصرة ١٩٨٦ م.
- ١١ - كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤ م.
- ١٢ - لويس ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١ م.
- ١٣ - محمد خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ٢، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.
- ١٤ - هشام جعيط، الكوفة، نشأة المدينة العربية، ط ٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٣ م.